# الأم ..
# فى العالم الغربى

# (الأمومة .. فى الأدب العالمى(*))

لعبت الأمومة دوراً لا يمكن تجاهله فى الأدب العالمى .. فإذا لم تكن البطولة معقودة للأم .. فإن الإشارة إلى دورها المؤثر تفرض نفسها على الشخصيات الرئيسية، وخاصة فى المسرحيات والروايات التى عالجت العلاقات الأسرية منذ المآسى الإغريقيـة ..

فمثلاً .. فى مأساة «سوفوكليس» أوديب ملكاً .. كان إهدار قيمة الأمومة عندما تزوج أوديب من أمه أحَدَ سببين جعلا الوباء يجتاح طيبة كلها .. فقد أصبح الرجس الذى يدنس المدينة كلها ..

فالأمور لا يمكن أن تستقيم فى وجود ابن تزوج المرأة التى أنجبته .. وقتل أباه .. وصار أخاً، وأباً للصبية الذين يعيشون معه ..

وفى العصر الحديث أطلق «سيجموند فرويد» ما أسماه بعقدة «أوديب» على الابن الذى يتعلق بأمه تعلقاً مرضياً .. هكذا كان الأب سباقاً إلى بلورة جوانب الأمومة ومعانيها فى حياة الناس، سواء أكانت جوانب إيجابية، أو سلبية، أو حتى مأسوية ..

فى مأساة «ميديا» يقدم «يوربيديس» بطلته «ميديا» كأم تحب ولديها، وزوجة تخلص لزوجها، ومع كل هذا السلوك المثالى تسير حياتها نحو كارثة حتمية؛ لأنها لا تستطيع التحكم فى وجدانها العارم حين تحب أو تكره ..

(*) د. نبيل راغب ..

ولذلك يجعل «يوربيديس» من غلبة العاطفة فى نفس «ميديا» على العقل سقطة دائمة لازمة بها .. فبسبب حبها الجارف قتلت أخاها .. وقتلت «بلياس» وقتلت «كريون» وابنته، ثم قتلت ولديها البريئين ..

ومأساة «ميديا» : أن العاطفة الجامحة عندها أقوى من تدابير العقل، بحيث فقدت الاتزان الملازم للعاطفة السوية بصفة عامة .. وعاطفة الأمومة بصفة خاصة مما جعلها مصدراً لعذاب نفسها ولتعذيب الآخرين .. ولهذا جعلها «يوربيديس» لا ترحل إلا مخلفة وراءها الدمار ..

فى مسرحية «هاملت» يركز شكسبير على العلاقة بين «هاملت» وأمه، تلك العلاقة التى رآها «هاملت» فى ضوء جديد بعد لقائه بشبح أبيه .. فلم يغفر هاملت لأمه زواجها من قاتل أبيه الذى كان عمه فى الوقت نفسه :

**الملكـة** : لشد ما أهنت أباك يا هاملت !!

**هاملت** : أى والدتى .. لشد ما أهنت أبى!!

**الملكـة** : ويحك، أتجيبنى بلسان غليظ؟ أنسيت من أنا؟

**هاملت** : لا، وربى .. إن أنت إلا الملكة .. امرأة أخ زوجك .. وليت هذا لم يكن ـ ثم .. أنت أمى ..

**الملكـة** : إذن سأبعث إليك بمن يحسن مخاطبتك ..

**هاملت** : إياك أن تتحركى، واجلسى فى مكانك ريثما أريك خبايا نفسك بمرآة صادقة ..

**الملكـة** : ماذا تبتغى منى؟ أتريد قتلى؟ أنقذونى .. أنقذونى ..

**بولونيوس** : (**وراء الحجاب**) ماذا جرى؟ النجدة!!

**هاملت** : (**يخرج سيفه**): من هنا؟ أجرو من الجرذان (**يضربه من وراء الحجاب**) مات، أراهن بدينار..

**بولونيوس** : (**من وراء الحجاب**) : أوه! قتلنى !! (**يسقط ميتاً**)

ويزيح هاملت الستار فيكتشف أنه لم يقتل الملك كما خيل إليه، بل قتل الشيخ «بولونيوس» رئيس الديوان الملكى، ووالد محبوبته «أوفيليا»، ينحنى هاملت على الجثة، ويخاطبها قائلاً :

**هاملت** : وأنت أيها الأجير الحقير الثرثار الأبله .. وداعاً .. لقد ظننتك من هو خير منك .. فخذ ما قسم كما قسم .. وتبين ـ ولو بعد حين ـ أن الإفراط فى الزلفى قد يورث الوبال ..

**الملكـة** : أى ذنب جنيت حتى تقسو علىّ هذه القسوة؟..

**هاملت** : جنيت ذنباً يدنس الطهارة .. ويخضب بالحياء وجه العفة .. ذنباً ينزع الوردة من جبين الحب، ويضع مكانها قرحة .. ذنباً يعيد عهود الزواج مكذوبة كأقسام المغامرين .. ذنباً يجعل الدين لفظاً بلا معنى ..

وإذا حاولنا تتبع مفهوم الأمومة فى الأدب العالمى المعاصر، فإنه يستحيل أن نجد أدباً يخلو من هذا المفهوم الذى عالجه الأدباء فى كل أنحاء المعمورة بطريقة أو أخرى .. وخاصة أن علم النفس قد فتح آفاقاً جديدة لهذا المفهوم بعد أن كان قاصراً فى القرنين السابع عشر والثامن عشر على الجانب الأسرى والاجتماعى مثلما نجد فى روايات «جين أوستن» التى ظهرت فيها الأم وكأن هدفها الوحيد فى الحياة هو تزويج بناتها حتى لا يفوتهن قطار الزواج ..

كذلك اكتسب مفهوم الأمومة أبعاداً سياسية وثورية، كما نجد فى رواية «الأم» التى كتبها الأديب الروسى «مكسيم جوركى» عام ١٩٠٧ .. وفيها تنغمس الأم حتى أذنيها فى خضم الثورة .. وتقوم بتوزيع المنشورات .. ولا تهتز عندما يلقى القبض على ابنها ويودع السجن .. بل تحاول التماسك أمامه حتى لا ينهار ..

وفى النهاية تتحول إلى جذوة مشتعلة تحترق من أجل أن تضىء طريق الثورة .. ويبدو أن «جوركى» قد جسد فى شخصية الأم وطنه : روسيا الواقعة تحت نير حكم القياصرة .. ومحاولاتها المستميتة للتخلص من هذا الطغيان .. ولذلك كانت بطلته مثلاً فريداً فى الأمومة التى تحتوى الوطن كله، وليست مجرد الأبناء ..

* * *

فى عام ١٩٣٨ استخدم الأديب التشيكى «كاريل تشابك» نفس المفهوم تقريباً فى مسرحيته «الأم» التى كانت فيها الأم تجسيداً حياً لوطنه تشيكوسلوفاكيا، وهى تقف مهددة فى مواجهة الطوفان النازى الذى أوشك أن يجرفها فى طريقه، الذى كان بمثابة بدايات الحرب العالمية الثانية ..

وقد أوضح «تشابك» فى مقدمة مسرحيته : أن زوجته هى التى أوحت بفكرتها إليه .. وتحمس لها؛ لأنه وجد فيها من الأبعاد الإنسانية الخصبة ما يبلور الخطر الذى يهدد الوطن الأم .. واشترط فى الإخراج المسرحى أن يبدو الجنود القتلى حول الأم وكأنهم أحياء وليسوا مجرد أشباح أحياء قادرين على التودد والتعاطف الحار .. بحيث يتخذون أماكنهم على المنصة بأسلوب طبيعى لا يمت للموت بصلة .. وهى الأماكن التى تعودوا عليها فى حياتهم، وفى منزلهم السابق بين أفراد عائلتهم وحول أمهم ..

فهم وإن كانوا قد ماتوا بأجسادهم، فإنهم لا يزالون يعيشون فى وجدان أمهم .. إنهم موتى فقط؛ لأن أمهم لا تستطيع احتضان أجسادهم، ولأن ضجيجهم قد خفت قليلاً .. لكنهم دخلوا الحياة الحقيقية من أوسع أبوابها ..

* * *

أما الأمومة عند الروائى الإنجليزى «د. هـ. لورانس» فتتخذ موقفاً نفسياً يقترب من الحالة التى أسماها «فرويد» بعقدة «أوديب» فى رواية «أبناء وعشاق» عام ١٩١٣ تتسع الهوة تدريجياً بين الأم وزوجها .. وتتهاوى بينهما كل الجسور الفكرية والعاطفية .. فتركز الأم كل أفكارها وعواطفها فى أطفالها : «وليم» و «آنى» و«بـول» و «آرثر» ..

وعندما يحصل «وليم» على وظيفة فى لندن يبدأ فى مساعدة أسرته، ومدها بالمعونة المالية .. لكنه يقع فى غرام فتاة تافهة تبدد ماله وصحته إلى أن يموت مصاباً بالالتهاب الرئوى .. وتغرق الأم بين أمواج الحزن والأسى .. لكنها لا تجد مخرجاً من هذه المأساة إلا ببث كل عطفها وحنانها فى ابنها الثانى «بول» الذى عاش بعد زواج «آنى» وابتعادها عن البيت، والتحاق «آرثر» بالجيش ..

وعندما يقع بول فى غرام فتاة تدعى «مريام» تحقد عليها أمه؛ لأنها تنافسها فى حب ابنها .. كذلك يفشل «بول» فى الارتباط بها؛ لأن حبه لأمه وقف فى طريقه حجر عثرة .. ويعانى نفس الفشل مع امرأة متزوجة تدعى «كلارا دوز» .. وعندما تمرض أمه مرض الموت يشعر بالضياع يجتاحه، ويحاول إنقاذ نفسه بإعادة ارتباطه بمريام ..

لكن الفشل القديم يخيم عليهما .. ويؤكد لهما أن حياتهما ستكون جحيماً إذا تزوجا .. وبالفعل ينفصلان مرة أخرى، وتموت الأم، لكنها لا تموت فى كيان «بول» ووجدانه؛ ذلك أنها أصبحت جزءا فى حياته لا يمكن التخلى عنه سواء فى حياتها، أو مماتها ..

وكان الأديب الإسبانى «جارثيا لوركا» من الكُتّاب الذين نظروا إلى الأمومة بمنظار شعرى ملتهب يتناسب مع روح إسبانيا المشتعلة .. يتجلى هذا فى مسرحيتين «يرما» ١٩٣٤ و «بيت برنارد ألبا» ١٩٣٦ ..

تدور المسرحية الأولى حول فتاة متزوجة لكنها عاقر، ولفظ «يرما» يعنى الأرض القاحلة الجرداء .. ولاشك أن «يرما» ليست حالة شاذة أو نادرة، فهناك ألوف وألوف من النساء اللائى لا يلدن .. لكن «يرما» ترى أن المرأة المتزوجة بلا أمومة كيان ميت لا معنى له .. إنها فتاة عنيفة تحول الإحساس بالأمومة إلى طاقة مدمرة تسرى فى دمها .. تنام وتصحو على حلم حياتها الوحيد : طفل تهدهده بين ذراعيها .. صورته لا تغادر خيالها ..

وبعد سنتين من الزواج نفد صبرها، وتحول الحنين إلى الأمومة جنوناً يستبد بكيانها كله .. ففى إسبانيا يندر أن تجد عاقراً .. الزوج والأولاد : هم دنيا المرأة ..

صحيح أن الفقر يمسك بتلابيب هذه الدنيا التى تتمثل فى بيت كالكوخ، وطعام لا يسد الرمق .. لكن عندما تتردد فى جنبات هذا البيت صرخات طفل وليد يتحول البيت الصغير الفقير إلى عالم فسيح تشعر فيه الزوجة بأنها أصبحت ملكة متوجة، ويتباهى بها زوجها بين الأهل والأصدقاء .. أما إذا لم يأت الطفل، تحول البيت إلى قبر يحتوى زوجين لا يعرفان طعم الحياة اعترافاً بهزيمتهما المأسوية ..

تتجلى المأساة فى طول لسان الجارات، ولغو القرويات الجارح الثقيل، إنهن ينظرن إلى الزوج العاقر كأنه اقترف جريمة، ثم يحولن وجوههن عنه كما لو كان وصمة .. أما الزوجة العاقر فالويل لها إذا كانت ضعيفة مستكينة .. إنها تستسلم للأخريات حين ينشبن أظفارهن فى لحمها، ولا تملك سوى الصلاة فى الكنيسة؛ لعل الله يزيح غمتها ويحل عقدتها ..

أما إذا كانت قوية عفية فإنها لا تستكين، بل تنشب أظفارها فى لحم الأخريات .. لكن «يرما» ـ برغم قوتها وجبروتها ـ لم تكن لترضى أن ترد الصفعة بالصفعة، أو أن تأتى عملاً مشيناً كالأخريات؛ ولذلك ينتهى بها الأمر إلى أن تنشب أظافرها فى لحم زوجها .. وتطبق بيديها على عنقه فى قوة المجنون ولا تتركه إلا جثة هامدة ..

وبذلك قتلت أمل الأمومة الذى راودها لكنه لم يتحقق، وبدلاً من التعلل بالآمال المستحيلة .. فإن الوحدة واليأس والموت أفضل وأكثر راحة ..

* * *

فى مسرحية «بيت برنارد ألبا» يقدم «لوركا» تنويعة مختلفة على لحن الأمومة فى شخصية بطلته «برناردا ألبا» التى تمارس أمومتها على بناتها الخمس بأسلوب مضاد لغريزة الأمومة ذاتها .. إنها تضحى ببناتها فى سبيل أخلاقيات تقليدية متوارثة ليس لها يد فيها، لكنها أخلاقيات تؤمن بها وتشترك فيها باعتبارها قوامة عليها وهن ضحاياها .. فالأمومة ذاتها يجب أن تخضع لهذه الحدود والقيود والأفكار السلبية المريضة ..

ولذلك وضعت «برناردا» أمومتها تحت كل ضغوط القسوة والتوجس والحذر .. إن مجتمعها لا ينهض على الحب والتسامح والشفقة .. بل يقوم على الحقد والحسد والنميمة .. فالقرية أشبه بمعركة صامتة بين أعداء متربصين ببعضهم بعضاً، والمهزوم هو من يعرف الآخرون وصمته؛ ولذلك يصبح الهم الأساسى لكل إنسان، تجنب الوقوع فى الشبهات بكل الطرق والوسائل .. وإذا وقع فيها فعليه أن يخفيها حتى يحمى نفسه من النميمة والألسنة التى لا تعرف الرحمة ..

وتحمى «برناردا ألبا» بيتها بإغلاقه للحداد مدة ثمانية أعوام .. وعلى الرغم من أن بيوت القرية كلها مغلقة والنساء محتجبات فإن القرية كلها كالميدان المفتوح لتجسس العيون والآذان التى تدس أنفها فى الحياة الخاصة بحثاً عن الفضائح والمصائب .. وهى الظاهرة التى قضت فى نهاية المسرحية على عالم «برناردا» عندما صار بيتها مضغة فى الأفواه .. وكان هدفها حماية بناتها من هذه المأساة .. فلم تنفعها واقعيتها واحترامها للتقاليد؛ إذ لم يدر بخلدها أن الأمور يمكن أن تكون على نحو آخر ..

أما «برتولت بريشت» فقد عالج مفهوم الأمومة من زوايا متنوعة فى مسرحيتى «الأم الشجاعة وأولادها» عام ١٩٤١ و« دائرة الطباشير القوقازية» عام ١٩٥٤ ..

والمسرحية الأولى كتبها «بريشت» قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية برغم أنها قدمت للجمهور عام ١٩٤١ فى مدينة زيوريخ بسويسرا .. وفيها ندد «بريشت» بالحرب وفلسفتها، وأعلن إفلاس كل من يحاول أن يكتسب من ورائها ..

فالأم الشجاعة التى تجمع بين الطيبة والدهاء ... تسعى إلى الخروج بأبنائها من أتون الحرب، فتحصل لهم بالحيلة والمكر على مغانم تضمن لهم حياة ميسرة .. لكنها تفقد كل شىء فى النهاية؛ إذ أن الحرب سيد لا يعرف الوفاء تجاه خدمه .. فقد أخطأت الأم عندما ربطت حياتها بالحرب واعتبرت القتال ولى نعمتها .. ذلك أنه يتحتم عليها دفع ثمن باهظ فى النهاية مقابل المكاسب التى حصلت عليها من المقاتلين ..

إن أبناءها الثلاثة ـ فتاة خرساء وشابان ـ يضيعون منها فى أثناء سعيها الحثيث للاستفادة من هذه الظروف الدموية المحيطة بها .. فشفايتزر كاز ـ الجندى النزيه ـ يعدم رمياً بالرصاص بلا ذنب ارتكبه سوى الإخلاص والأمانة .. فى حين تقف أمه مترددة فى دفع مبلغ تفتديه به ..

أما الابن الثانى ـ إيليف ـ فيروح ضحية بطولته وجرأته .. والعمل البطولى الذى جلب له الشرف فى أثناء الحرب هو نفس العمل الذى قضى عليه وقت السلم .. حتى الابنة الخرساء «كاترين» تموت برصاص الجنود؛ لأنها أرادت أن تخرج من عزلتها وتحتج على الأساليب الإجرامية التى يلجأ إليها العسكريون لتحقيق الانتصار، وتتجلى قمة المأساة عندما تقضى الحرب على كل قيم الأمومة .. فقد فقدت الأم كل شىء .. لكنها لا تكفر بسيدها، بل تجر عربتها، وتسير فى نفس الطريق الذى اعتادته وسط هذا الجحيم تبيع القار للمقاتلين ..

* * *

أما مسرحية «دائرة الطباشير القوقازية» فتدور أحداثها حول امرأتين تتنازعان طفلاً فيما بينهما، وهى مستمدة من قصة صينية شعبية بسيطة عرفت باسم «دائرة

الطباشير» وهى شبيهة إلى حد كبير بحكاية «حكم سليمان» التى تروى كيف استطاع سليمان الحكيم أن يحكم حكماً عادلاً فى قضية امرأتين احتكمتا إليه فى طفل ادعت كل منهما أنه ابنها .. فلجأ إلى حيلة شطر الطفل شطرين لتأخذ كل منهما شطراً، فأبت أمه الحقيقية أن يشطر، وآثرت التنازل عنه؛ إذ أبى عليها حنان الأمومة أن يذبح ابنها، فكان ذلك أقوى دليل على أنها الأم الحقيقية ..

فحَكَم سليمان لها، أما فى الحكاية الصينية فبدلاً من وسيلة شطر الطفل إلى نصفين، اقترح القاضى (آزدك) ـ بطل المسرحية ـ رسم دائرة طباشير وضع فيها الطفل، وطلب من كلتا السيدتين المتنازعتين أن تشد الطفل من ذراعه إلى ناحيتها، والتى تستطيع إخراجه من دائرة الطباشير ستكون هى الأم الحقيقية؛ لأن قوة الأمومة أكبر ..

وقد استوحى «بريشت» هذه الفكرة من الحكاية الصينية، لكنه عكس النتيجة، لأنه لم يجعل الأم الحقيقيةَ هى التى يحكم لها بالابن، بل حَكَم القاضى للخادمة (جروشا) بأحقيتها فى الطفل من أمه الحقيقية؛ لأنها هى التى أنقذت الطفل، وعنيت به وفَـرَّت به .. فى حين هربت أمه وتركت طفلها عندما اشتعلت الثورة وقتل زوجها الحاكم فى إحدى مدن القوقاز .. ومغزى هذا الحكم واضح عند (بريشت) وهو أن الأمومة ليست مجرد الحمل والإنجاب .. وإنما هى معاناة ورعاية وحنان وتضحية وهذا ما فعلته الخادمة (جروشا) ..

وفى عام ١٩٣٤ عاد الأديب الفرنسى «جان كوكتو» إلى أسطورة «أوديب» كى يعالجها فى ضوء علم النفس الحديث مستخدماً اتجاهات الأدب المعاصر من سيريالية وتعبيرية .. ففى مسرحية «الآلة الجهنمية» نجد تحليلاً سيكولوجياً متعدد الأبعاد والأعماق لعلاقة أوديب بأمه التى تزوجها دون أن يدرى .. فقد أراد «كوكتو» أن يوازن بين الأسطورة القديمة والحياة المعاصرة، بحيث لا يظهر من الأسطورة سوى جوهرها ودلالاتها السيكلوجية .. وخاصة علاقة أوديب الغريبة بأمه، وهى العلاقة التى أثارت خيال العديد من كُـتَّاب المسرح عبر تاريخ الأدب العالمى .. ابتداء من

«اسخيلوس» و «سوفكليس» و «سينيكا»، و «مرورا جارنييه» «انتيجون أو الإيمان» سنة ١٥٨٠ و«كورنى أوديب» ١٦٥٩، و«راسين طيبابيد» ١٦٧٦ و«فولتير» «أوديب» ١٧١٨، وانتهاء بأندريه جيد «أوديب» ١٩٣٢، و كوكتو «الآلة الجهنمية» ١٩٣٤ و«توفيق الحكيم» «أوديب» ١٩٤٩ ..

وكانت نظرية «فرويد» المسماة «عقدة أوديب» تمثل الرجوع إلى رحم الأم، فعمى «أوديب» يمثل بأعمق معانيه رجوعاً حقيقياً إلى ظلمة رحم الأم .. واختفاء «أوديب» النهائى وراء صخرة فى العالم السفلى يعبر مرة أخرى عن نفس الرغبة المتجهة نحو العودة إلى الأرض الأم .. وهذا يذكرنا «بصامويل بيكيت» عندما قال : «إن الإنسان يخرج من ظلمة الرحم إلى ظلمة القبر ماراً بظلمة الحياة» .. ولاشك أن هذه الدلالات النفسية المتشائمة قد تركت بصماتها واضحة على من عالجوا مأساة «أوديب» معالجة حديثة مثل «جيد» و «كوكتو» ..

أما الأدب الأمريكى فقد عالج مفهوم الأمومة من وجهة نظر اجتماعية اقتصادية أكثر منها زواية ميتافيزيقية تراجيدية، يتضح هذا فى رواية «الأم» التى كتبتها «كاثلين نوريس» عام ١٩١١، والتى تدور حول حياة مدرسة تعيش فى الغرب الأوسط مع أمها تحت ضغوط اجتماعية لا يمكن الهروب منها .. كذلك كتبت «بيرل بك» رواية «الأم» عام ١٩٣٤، وأحاطت فيها شخصية الأم بهالات ملحمية وميلودرامية ..

وفى عام ١٩٥٨ قدم الأديب الانجليزى «بيتر شافر» مسرحيته «تمرين الأصابع الخمس» التى نجد فيها الفتاة «باميلا» المراهقة التى لا تبين عن اتجاه ما، ولا تنحاز لفكرة بذاتها. بل لا تنحاز إلى طبيعتها كفتاة قد نحس فى داخلها ـ من خلال تصرفاتها المادية ـ بعض الاهتزازات، لكنها دائماً اهتزازات غير واضحة ومترددة بين القديم والحديث .. و تستنيم «باميلا» متلذذة لرغبة أمها فى صياغتها على طريقتها التقليدية .. وتسير فى الواقع راضية نحو مستقبل مؤكد .. هو مستقبل الدمية التى يحركها صانعها بخيوط يمسك بها بين أصابعه؛ لتأتى حركات خارجية شكلية لا معنى لها، ولا مدلول ..

أما «وولتر» فيقوم بالكشف عن الزيف الذى يبرقع العلاقة الإجبارية بين الوالدين، عندما أعلن للأم «لويز» عن إحساسه الحقيقى نحوها بالبنوة .. وصرح لها أنه إنما يريد أن يرى فيها أمّـا ثانية .. فهزم فيها أنوثتها الجائعة إلى غذاء جديد، وهزم فيها كرامة الأنثى، ومزق القناع الزائف الذى كانت تخفى تحته وجهها الحقيقى ..

أما فى الأدب العربى المعاصر فقد كتب نجيب محفوظ رواية «السراب» عام ١٩٤٨ التى قام هيكلها على عقدة البطل من جهة أمه، فهو لا يستطيع أن ينفصل عنها، ومن جهة زوجته، فهو لا يستطيع أن يتصل بها جنسياً ..

ولم تكن الرواية مجرد تحليل نفسى لعقدة «أوديب» فى العصر الحديث؛ لأن «نجيب محفوظ» نجح فى تحويل هذه العقدة إلى طاقة متجددة لتسلسل الأحداث مثلما فعل د. هـ لورانس فى رواية «أبناء وعشاق» عام ١٩١٣ .. يقول بطل «السراب» :

ـ «كانت أمى وحياتى شيئاً واحداً، وقد ختمت حياة أمى فى هذه الدنيا، ولكنها لاتزال كامنة فى أعماق حياتى، مستمرة باستمرارها، لا أكاد أذكر وجهاً من وجوه حياتى حتى يتراءى لى وجهها الجميل الحنون، فهى دائماً أبداً وراء آمالى وآلامى .. وراء حبى وكراهيتى .. أسعدتنى فوق ما أطمع .. وأشقتنى فوق ما أتصور .. وكأنى لم أحب أكثر منها، وكأنى لم أكره أكثر منها، فهى حياتى جميعاً، وهل وراء الحب والكراهية من شىء فى حياة الإنسان؟ ..

كانت حياة بطل الرواية كلها فى كَنَف أُمه، فلم تجد الأم مهرباً من مأساتها الأسرية إلا فى طفلها الذى أودعته حضنها حتى عودته ألا يبرحه، ولم يدرك بعد أن كبر هو وبعد فوات الأوان أنه كان حناناً شاذاً قد جاوز حده، ومن الحنان ما يهلك .. كانت مصابة فى صميم أمومتها، فوجدت فى ابنها الصغير السلوى والعزاء .. من هنا كانت مأساة البطل التى أوشكت أن تدمر حياته تماماً ..

وهكذا يبدو أن مفهوم الأمومة كان، ولايزال، وسيظل مصدراً مغرياً لكثير من الأدباء على اختلاف عصورهم وبلادهم واتجاهاتهم، ينهلون منه وحياً متجدداً لكثير من المضامين والقضايا والأبعاد التى لا يمكن أن تشعر الجمهور بالتكرار، أو تصيبه بالملل .. فمع تطور الحياة الحتمى تكتسب الأمومة دلالات جديدة وإيحاءات خصبـة مثيرة .. إنها معين لا ينضب لكل أديب يريد التعامل مع جوهر الحياة بقدر الإمكان..

* * *

## (بين الأمومة والأنوثة(*))

إن هذا الطور من عاطفة الحب : (الأمومة) لا يغنى المرأة عن حب زوجها .. فالطفل لا يحل من قلبها محل الرجل .. بل هى تفصل بين حب الرجل وحب الطفل؛ لأن الأول يمهد لها السبيل لإسعادها بأنوثتها ..

يقول (جوستاف لانتييه) : إن المرأة تحس بعظم واجبها نحو طفلها، ولكنها تفهم نفس الرجل .. وتدرك أنه لا يتقيد بالأبوة؛ ولذا تعتقد أن طفلها ملك لها .. ولكن زوجها ملك لنزواته ـ فالأبوة وحدها لن تبقيه فى محيط الأسرة إن لم تقترن بحلاوة أنوثتها وسحر محاسنها وإغراء مفاتنها ..

فالمرأة لا تنسى أنوثتها حين تكون أُماً .. والرجل يريدها أُمّـا وأُنثى؛ ولذا تتحلى وتبالغ فى التأنق مهما كثر أولادها؛ لأنها تود الاحتفاظ بزوجها خدمة لأبنائها المحبوبين .. وحرصاً على استقرار الأسرة وسعادتها .. ولأنها تنشد بفتنتها إسعاد أنوثتها..

(*) د. محمد فتحى ـ عاطفة الحب ..

فالمرأة تطلب الحب .. وتوحى بالحب .. وتحيا بالحب .. وهى تحب الرجل .. تجذبه ليقترن بها .. فتكون أماً .. وقد تغمرها سعادة حبها للرجل .. فلا تحس بحاجتها للأمومة وحب الأطفال .. ولكنها لا تسعد إذا منحت نعمة الأمومة ـ دون حب زوجها ـ لأن الأمومة سعادة عاطفية خالصة، ولكن حب زوجها يسعد قلبها وأنوثتها فى وقت واحد ..

والزوج قد ينكر على زوجه ضروب الفتنة والإغراء والتأنق؛ إذ يرى أنها لا تتفق مع سمو الأمومة .. وقد تصرفها عن حق أبنائها فى تفكيرها ووقتها ..

ولكن الزوج الذى يأبى الاستمرار فى مبادلة زوجه العاطفة المتقدة ـ إنما يعنى أن تحكم زوجه على باقى فتوتها وشبابها بالإعدام المحزن .. وبألا تهتم بالتمتع بأنوثتها، مع أنه يريد لنفسه حسناء فاتنة وحلوة أنيقة مغرية ترضى ذكورته ..

إن من حق المرأة على زوجها أن يبادلها ألوان العاطفة والمتعة، فإغراؤها وتأنقها وفتنتها ليست إلا نداء أنوثتها الذى لا يتعارض مع عاطفتها نحوه ونحو أولاده ..

بل إن اهتمام المرأة بفتنتها لزوجها ليس إلا إرضاء له ومكافأة له وتشجيعاً على الاستمرار فى حبه لها ..

أليس المحب يتمنى إسعاد محبوبه، وإمتاعه بكل الوسائل الممكنة؟ إنها لا تلقى منه إلا الإعجاب المسرف بحسنها واشتهاء متعته؛ ولذا تعمل جاهدة لتحقيق أمله فيها.. فتحاول الفوز من الحياة بكل ما يجدر بحسنها وفتنتها.

هى تنشد الزواج لتطمئن إلى سعادة الحياة المنظمة .. وتنشد الحب لتهنأ نفساً وتنعم قلباً .. وتنشد أسباب التمتع المادى الباهر .. فإذا لم تحقق هذه الرغبات الثلاث مجتمعة .. فقد تفسد أخلاقها، وتبعد عن فضائل الحب وعما كانت قبل الزواج ..

ويرى (جوستاف لانتييه) أن التعليم والتربية الصالحة معاً يُلْـزِمان المرأة حد الاعتدال، ويُشْعِرانها بالحد الفاصل بين ما يجوز لها التمتع به .. وبين الأحلام المفرطة العذبة التى تلدغها بالآلام حين لا تتحقق ..

إن المرأة عاشقةً أو زوجاً أو أُمّـا حساسة المزاج .. رقيقة الحس، يدللها الرجل، ويفتن فى إمتاعها وإرضائها، ويقيمها على عرش قلبه وحياته .. إن طلب الرجل للذة والمتعة جعل المرأة تهتم بإرضائه .. فأسرفت فى الحب والغيرة والتحايل والسعى وراء مشتهيات الحياة التى قد تعجز عن تحقيقها ..

ولكن الرجل المحب المخلص .. الثابت فى حبه .. الصادق فى وفائه يجب أن يكون ذكياً حكيماً ماهراً يعرف كيف يمتع حواءه، ويمتع نفسه بنفس الحقوق .. ويعرف كيف يطالبها ويطالب نفسه بنفس الواجبات .. وبذلك يؤثّر فى المرأة ويصلح أمرها إذا ما انحرفت .. فيخلق ملاكاً حقيقياً من إنسان ...

* * *

## (يوم الأمهات)
## (الذكرى العاطرة(*))

كلما حل «يوم الأمهات» الذى تخصصه لتكريمهن بعض بلاد الغرب تتراءى لى سلسلة طويلة من الذكريات .. فأذكر الليالى التى كنا نعود فيها إلى بيوتنا متأخرين، فنجد أُمنا ساهرة ترقب عودتنا فى شغف وقلق .. وبرغم تعبها الشديد .. كانت تساعدنا فى خلع ملابسنا، ولا تجد غضاضة فى حل عقدة رباط الحذاء إذا صعب علينا حلها، ثم تبقى فى خدمتنا وإلى جوارنا حتى ننام .. وحينئذ تستأنف إتمام أعمال المنزل العديدة ..

(*) الهلال ـ أغسطس ١٩٥٣ ـ ريتشارد ايفانز ـ تأملات ..

وأذكر الأطعمة والأشياء العديدة التى كانت تقدمها لنا وتحرم نفسها منها .. كما أذكر الليالى التى كانت تقضيها ساهرة إلى جوار فراشنا لا يغمض لها جفن كلما ألمت بنا علة ..

وأذكر الابتسامة الحلوة التى كانت تبعث فى نفوسنا الأمل والطمأنينة كلما تملكنا اليأس والقلق .. وأذكر صلواتها ودعواتها لكى يحفظنا الله ويهيىء لنا النجاح .. حقا ما أروع الأمومة! وما أجدر الأبناء بتكريم أمهاتهم! ولكن هؤلاء الأبناء مهما يكن من وفائهم وتفانيهم فى هذا السبيل، فلن يوفوا حق الأم كاملاً ..

* * *

## (سِــرُّ أمــى)

*** لقد أثبت هذا السر أن الأمومة حالة يستعصى علاجها ..**

لابد أنك سمعت الكثير عن أبناء يخدعون أمهاتهم .. لكن لعلك لم تسمع قط عن أُم تخدع أبناءها .. أمّــا أنا فأعرف أُمّــا فعلت ذلك .. إنها أُمى .. على أننا اكتشفنا حقيقة أمرها فى النهاية ..

لقد نشأنا خلال الأزمة الاقتصادية الطاحنة .. وقد لا يدرك الأطفال هذه الأيام ما تعنيه تلك الأزمة .. إنها تعنى لا أحذية .. وطعامًــا ضئيلاً جداً .. ومأوى لا يكاد يكفى .. مع احتمال قوى بأن الأسرة كلها سيلقى بها فوق الأرصفة! كانت تلك هى الأزمة، ومما زاد من وقعها علينا أن أبى كان قد هجرنا ..

وعلى أية حال لقد عملت أمى خلال تلك السنوات العصيبة على توفير الطعام والكساء والمأوى والدراسة لنا نحن أبناءها الأربعة .. حتى شاب شعرها قبل أن تبلغ الخامسة والثلاثين، كانت أمى مرحة ولكن فى عينيها نظرة قلقة .. ولم تستمتع أمى بثياب جميلة أو بأوقات طيبة قط ..

وعندما كبرنا نحن الإخوة الأربعة، استطعنا أن نربح ما يكفى لأن نجمع مبلغاً لا بأس به، ونرسله لأمنا كل أسبوع، عساها تبدل أيام ضنكها بأيام رغدة ما بقى من سنواتها بعد أن جاوزت الخمسين ..

ولكننا شعرنا جميعاً بنوع من خيبة الأمل فى الحياة الجديدة لأمنا؛ فهى لم تنتقل إلى مسكن جديد .. قائلة إنها مستريحة تماماً فى مسكنها القديم .. بل إنها لم تلتمس خادمة تعاونها بحجة أنها تحب عمل البيت .. ولم تشترِ لنفسها أية ثياب جميلة ..

وظلت تؤجل كل اقتراح للقيام برحلة إلى شاطئ البحر أو الخارج خلال العطلات حتى تخلينا عن هذه الفكرة ..

وظللنا نرسل لها نفس الشيك كل أسبوع .. وظننا نحن الأربعة أنها لابد قد ادخرت مبلغاً كبيراً من المال طوال العشرين سنة التى مرت حتى وفاتها؛ لأنها لم تكن تنفق إلا قدراً ضئيلاً جداً منه كل أسبوع ..

ولكننا عندما بحثنا فى أوراقها اكتشفنا أن أمى كانت مفلسة .. لقد كانت تنفق تلك الشيكات بمجرد وصولها .. أتدرون على أى شىء كانت تنفقها؟ ..

لقد اتفقت أمى سراً ـ بمجرد أن كبرنا ولم نعد عبئاً على كاهلها ـ مع منظمة لغوث اللاجئين ليرسلوا إليها بأربعة من يتامى الحرب الأوربيين واستأجرت لهم مسكناً بجوار بيتها، وظلت تواليهم، طوال العشرين سنة، بالرعاية والتعليم والتمريض .. وخلال مشكلة المراهقة .. وزوجت اثنين منهم ..

إنها لم تخبرنا مطلقاً بأمر هؤلاء الأبناء الجدد .. وأظن أنها كانت تخشى ألا نوافق على أن تخوض نفس المتاعب التى خاضتها معنا مرة أخرى .. وأنا أيضاً لست على يقين من أننا كنا سنوافق .. وهأنت ذا ترى أنه ليس من اليسير على أبناء نشئوا وهم يرون أمهاتهم يرهقن أنفسهن نصف حياتهن لتربيتهم، أن يفهموا أن الأمومة حالة يستعصى علاجها ..

* * *

*** بقلم : آل كاب ملخصة عن (مونتيور)**

# (تأثير الأم على بناتها)

* **ويقول مهدى عبيد**[1] :

ـ فى معظم الأحيان تنسى الأم .. أو تتناسى لا شعورياً، أن ابنتها كبرت .. فتظل تعاملها وكأنها طفلتها المدللة .. وقد أثبتت التجارب أن علاقة الأم بابنتها الناضجة هى إحدى أصعب العلاقات التى يمكن أن يختبرها الإنسان؛ لأن مثل هذه العلاقة لا يمكن أن تتحاشاها الفتاة؛ لأنها مرغمة على أن تعيش فى البيت مع والدتها ..

بالنسبة للشاب .. الأمر يختلف؛ لأن باستطاعته أن ينسلخ عن كيان العائلة متى شاء .. ويتبع حياة خاصة مستقلة به .. أما الفتاة فعليها أن تتدبر نفسها وتتعلم كيف تعيش مع والدتها بأقل قدر ممكن من المشاكل والانعكاسات النفسية السيئة ...

* **الدكتور «روبرت ايلستاد» ، العالم النفسانى فى لوس انجلوس يقول :**

ـ إن باستطاعة الأب والأم أن يسببا كثيراً من الأذى لأولادهما .. كما أن بإمكانهما مساعدتهما لمجابهة الحياة بنفسيات ناجحة لا أثر فيها للعقد أو الشعور بالذنب ..

وتبقى الأم هى الشخصية المسيطرة فى البيت .. إنها تملك قدرة هائلة فى التأثير على ابنتها أكثر من تأثيرها على ابنها؛ لأنها من نفس الجنس الذى تنتمى إليه الفتاة، ولأنها تلازمها دائماً فى البيت .. ولاشك فى أن الأم المثالية هى التى تساعد ابنتها على بناء نفسها، وهى أيضاً المثل الأعلى الناضج لها .. أما إذا كانت الأم عصبية المزاج، تحب السيطرة وشخصيتها مهزوزة فلاشك أن ابنتها سوف تتطبع بعض الشىء بهذه الصفات ..

---

(١) القضايا المعاصرة عند الرجل والمرأة ..

الأم : هى الصورة «النيجاتيف» التى تطبعها الفتاة فى ذهنها، وتعيد تحميضها كلما صادفت شخصاً جديداً .. فتأتى صورة الأم دائماً فى خلفية صورة هذا الشخص .. منطقياً، الفتاة ترسى توقعاتها لسن النضوج على أمها؛ لأنها ستصبح أُمّـا مثلها بعد الزواج ..

وحتى فى العائلات التى يتخذ فيها الأب كل القرارات الهامة تبقى الأم هى الرادار الذى يحرك العائلة .. فإما أن تنجح فى علاقاتها مع ابنتها، وإما أن تفشل ..

والأم الناجحة هى التى تترك لابنتها حرية التفكير .. ولا تتدخل فى كل شاردة وواردة بحيث تبقى هى عالمها النفسانى، وبذلك تكون قد بددت شخصية ابنتها ..

دلت الإحصائيات التى أجريت مع نساء تتراوح أعمارهن بين ٢٠ـ٤٠ سنة على أن الأمهات ينقسمن إلى ستة أنواع هى :

**١ـ الأم والشعور بالذنب :**

لا يستطيع أى إنسان أن ينمو فى مجتمع ما، إن لم يتعلم كيف يشعر بالذنب عند تأديته لبعض الممارسات الخاطئة .. أى على الإنسان أن يشعر أنه مذنب فى بعض الأحيان؛ ليعرف كيف يتجنب الشر، ويفتح قلبه للخير ..

والأم التى تربى بناتها وتنمى فيهن الشعور بالذنب، تبقى حاضرة دائماً لتقديم المساعدة وترقب النتائج .. ولكن ولسوء الحظ، لا تسير الأمور اليوم بين الأم والفتاة على هذا النحو وبصورة طبيعية وسهلة كما هو مفروض .. فالأم باتت تتدخل فى أمور لم تعد تعنيها؛ لأنها بهذا تفتقد الشعور بالأهمية ..

والأم العادية تمر بسلسلة من الخسائر، فتضطرب علاقتها بابنتها، وتحيد عن الطريق القويم ..

الأم تخسر ابنتها بالزواج .. وابنها فى الجامعات أو المهن .. وهذه الخسارة تكون مزدوجة .. خسارة الفتاة أو الفتى، وخسارة مركزها كنقطة ارتكاز فى العائلة .. وقد تفقد أيضاً زوجها بالموت أو الطلاق، وأخيراً صباها ..

وعندما تخسر الأم ابنتها، تصبح كل خسارة ثانية تمارسها فى الحياة، أو تمر بها مرتبطة بالخسارة الأولى، فتخبر ابنتها بالأمر وتقول لها : إنها المسئولة عن تعاستها .. فيتولد عند الفتاة الشعور بالذنب الذى قد يرافقها طوال حياتها ..

وكثير من النساء اللواتى سببت لهن أمهاتهم مشكلات عائلية .. قلن : إنهن لم يستطعن أن يرفضن أى طلب لأمهاتهن، حتى لو كان هذا الطلب غير منطقى؛ ولهذا السبب شعرت الأمهات بأن بناتهن جزء لا يتجزأ منهن، جزء سيرافق الابنة مدى الحياة، وأى رفض لطلب الأم قد يسبب لها أذى مستمراً ..

والأم التى ترفض لها ابنتها أى طلب تقول لها :

*** لقد ضحيت بكل شيء فى سبيلك .. انتظرى حتى تصبحى أمّـا لتختبرى نفس الشيء الذى اختبرته ..**

**٢ـ الأمهات غير المشجعات :**

الأمهات غير المشجعات هن اللواتى يقنعن بناتهن بأنهن لم يفعلن أى شيء له قيمة طوال حياتهن .. ومثل هذه العلاقة تبدأ باكراً، وتترك عند الفتاة شعوراً بعدم النمو، أى أن الفتاة تعيش مع أم غير مشجعة لا تستطيع أن تنمو نفسياً ..

والأم غير المشجعة تحاول أن تعيد ترتيب كل شيء فى منزل ابنتها لدى كل مرة تزورها فيها .. لكى تشعرها أنها لم تقم بأى عمل ناجح فى حياتها .. ولتشعرها أيضاً أنها ماتزال الشخصية الرئيسية المسيطرة فى حياتها ..

ومثل هذه الأم تقول لابنتها :

*** أنت مازلت ابنة أمك المدللة ..**

وهذه المعاملة قد توقف مشاعر الفتاة عن النمو، وتسبب لها مشكلات مع زوجها قد تنتهى بالطلاق ..

فالفتاة الضعيفة الشخصية، يدخل عدم تشجيع أمها لها فى كل ذرة من كيانها، فتشعر أنها غير قادرة على العيش مع زوجها، وغير قادرة على تحمل المسئولية .. ومشكلات نفسية من هذا النوع تنتهى عادة بالطلاق، وكل هذا بسبب الأم غير المشجعة .. وحتى بعد موت الأم تبقى شخصيتها هى المقود الذى يسير الفتاة، فيعود طيفها من وراء القبر ليمارس سيطرته فى منزل الفتاة الزوجى ..

* ويقول الدكتور ايلستاد :

ـ إن الفتاة فى مثل هذه الحالة تكون محبوسة أو مقيدة فى قضية أو موقف حيوى أساسه أن الاعتماد على شخص (الأم) لا يتجاوب ولا يشجع ..

وأحياناً ـ وهذا انعكاس طبيعى ـ يشعر المرء أنه كلما لقى أذى من شخص آخر صعب عليه التحرر من هذا الشخص .. وهذه هى الحالة التى تعانى منها الفتاة مع أم غير مشجعة ..

والأمر لا يتوقف عند هذا الحد .. فالأم غير المشجعة تترك لدى الفتاة موقفاً يجعلها لا تصدق أية كلمة يقولها لها الناس إن لم تكن مطابقة لكلام الأم ..

حتى من الناحية العاطفية، تصبح الفتاة غير قادرة على أن تحب لأنه لا شىء يمكن أن يعوض لها الشجاعة التى افتقدتها ... فمشاعرها ذابت بمشاعر أمها وأصبحتا جسداً واحداً ..

٣ـ الأم العاطفية الغائبة :

كل فتاة ناضجة تكون أمها ناضجة، وتعرف كيف ترعى ابنتها عاطفياً؛ لأن أية مشكلة تجابه، أو تصادف أو تضايق الفتاة فى البيت .. أو المدرسة .. أو المجتمع يجب أن تشعر أن أمها موجودة لتساعدها على حلها ..

والأمهات الغائبات عاطفياً لا يساعدن بناتهن؛ لأنهن مشغولات عنهن بمشكلات أخرى .. وأكثر من هذا، فإن مثل هؤلاء الأمهات يعتبرن أى ضرر يلحق بالفتاة كأنه لحق بهن شخصياً ..

الأم أحياناً تقول لابنتها :

**ـ هل ستطلقين؟ .. وكيف تفعلين مثل هذا الأمر معي؟ ..**

أى أن مشكلة طلاق الفتاة تعتبرها الأم كأنها إهانة موجهة لها شخصياً .. والفتاة فى مثل هذه الحالة لا تعود تشعر بوجودها فتتلاشى شخصيتها وتضمحل وتعيش حياتها وكأنها خيال .. أو كأنها تعيش فى حلم ..

والأمهات الغائبات عاطفياً، يعشن حياة غير سعيدة مع أزواجهن .. وعندما يخلو قلب الأم من العاطفة لزوجها لا يعود هناك أى رصيد من الحب لبناتها .. ومثل هذه الأم تسمى «الفارغة عاطفياً» .. وهى عادة تسبب كارثة عاطفية لبناتها ..

وأم من هذا النوع قد تكون نشأت فى محيط يعتبر التعبير عن العواطف شيئاً مضراً، فترث الفتاة هذا تلقائيا وتكبت عواطفها وتعيش فى داخلها ولا تجرؤ على التطلع خارجاً .. أى أنها تصبح سجينة نفسها والسجان هو الأم .. والمفتاح هو الكبت..

والفتاة يفيدها أحياناً العلاج النفسى الذى يفرغ ما فى داخلها من انفعالات مكبوتة ويجعلها قادرة على أن تقول كل ما يجول فى خاطرها فى أى ساعة تشاء ..

إن التعبير عن المشاعر هو حق .. وهو شيء مقدس .. وكبته جريمة لا تغتفر بحق الأهل ..

وقراءة الكتب التى تبحث هذا الموضوع مفيدة؛ لأنها (تنفيس) عن المشاعر المتراكمة، فتجد من خلال القراءة متنفساً ترتاح إليه ..

**٤ـ الفتاة والأم المثالية :**

الأم المثالية هى التى تهتم بانتها، وتشعرها أن باستطاعتها أن تقوم دائماً بعمل أفضل من الذى قامت به .. وعادة تكون العبارة التى تسعملها الأم هى :

**«هذا رائع ولكنه غير كاف» «يمكنك أن تحققى نجاحاً أكبر، وأن تقومى بعمل أفضل» ..**

ومثل هـذه العبـارة تجعل الفتاة حاضرة الذهن دائماً، ومستعدة لكل عمل جدى .. وعندما تتزوج الفتاة لا تقول لها الأم المثالية بأنها تزوجت رجلاً لا يستحقها حتى ولو كان هذا صحيحاً؛ لأنها لو قالت لها هذا لعاشت الفتاة طوال عمرها محاولة تحقيق ما توقعته الأم منها .. وهذا بالطبع مستحيل؛ لأن الكمال غير موجود..

الأم المثالية هى التى تجعل ابنتها تكيف نفسها حسب الأجواء التى تعيش فيها . فتجعلها جنة إذا كانت جهنم .. وتجعلها سماء إذا كانت أرضاً ..

والفتاة التى تعيش فى كنف أم مثالية : تثق بنفسها، وبقدرتها على مجابهة الحياة.. والأم المثالية لا تحاول أن تجعل ابنتها صورة عنها، بل تحاول أن تولد شخصية خاصة مستقلة بها ..

وهى ترغب فى أن تكون ابنتها كاملة لتعوض عن نقص اختبرته .. أى أن الفتاة من هذا النوع هى استمرار للأم المثالية .. فتصحح خطأها .. وتسد ثغراتها وعثراتها ..

والمرأة المثالية تنافس بناتها فى شتى الميادين؛ لتعودهن على البحث عن الأفضل، ولتعودهن على التفوق .. والمنافسة والطموح .. والعبارة التى تستخدمها الأم مثل :

**ـ «لو كنت فى سنك لكنت فعلت هكذا» ..**

وبهذا تعيش الفتاة حياة متحركة كلها تحفز ورغبة للوصول إلى ما هو أفضل ..

**٥ ـ الفتاة والأم المفضلة :**

الأم التى تفضل بعض أولادها تعمل هذا لسعادتهم ولشقائهم فى آن واحد؛ لأن المفاضلة سلاح ذو حدين، فإما أن يساعد الأولاد إذا كان حسناً .. وإما أن يشقيهم. وتفضيل الأم لبعض أولادها سببه حرب غير واعية بين الأم والأب ..

والتصنيف الهادف هو الذى يقيس الحسنات لا السيئات .. وهناك فرق بين أن تقول الأم لابنتها : أخوك أفضل منك فى المدرسة، ولكنك أفضل منه فى البيت .. أو أن تقول له :

ـ «أنت أسوأ من شقيقتك» ..

العبارة الأولى : تحث الولد على الاجتهاد .. والعبارة الثانية : تهد عزيمته .. وتقضى على طموحه .. والأم لا تصنف أولادها عليها أن تتجاوب مع كل واحد منهم بطريقة مختلفة .. مثلاً تحاول الأم أن تعيد بناء ابنتها الصغرى لتصبح كشقيقتها الناجحة، وذلك دون التعرض لذكر أخطاء الأولى ..

* **تقول إحدى الفتيات التى عاشت فى كنف أم عصبية :**

ـ «شعرت أن علىّ أن أتغير كلياً كى تحبنى أمى، وهكذا أمضيت فترة وأنا أتظاهر أن هذا لا يعنينى مع أنه يعنينى، وهو من صلب حياتى» ..

ومثل هذا الشعور يستمر بعد البلوغ فيصبح ألماً أو صراعاً؛ لأن فى التصنيف يكمن الخطأ أساساً ..

* **فتاة أخرى قالت :**

ـ «أمى وضعت لى برنامجاً معيناً .. عَـلَـىّ التقيد به مدى الحياة» ..

* **وأضافت هذه الفتاة تقول :**

ـ «أنصح كل أم ألا تطلق على أولادها الألقاب «كالسمينة» أو «الخجولة» ؛ لأن هذا مضر بالأولاد .. فالفتاة التى تلقب «بالخجولة» قد تصبح بالفعل خجولة بعد زواجها، مما يسبب لها برودة أو مشكلات جنسية مع زوجها قد تقود إلى الطلاق كما حدث معى» ..

**٦ـ الأم المولدة للخوف :**

باستطاعة الأم أن تفرض أية وجهة نظر على أولادها، حتى لو لم تكن حقيقة .. فعندما يكون الولد طفلاً فإنه يعيش دون حماية ويسهل السيطرة عليه .. والأم التى تتظاهر أنها تعيش لتحمى أولادها من غضب والدهم رغم أن الأب قد يكون شخصاً متزناً .. لا مبرر لهذه الحماية .. تزرع فى أطفالها بذور الخوف من الرجال ..

وعندما يكبر الطفل .. وإذا كانت أنثى، فيولد عندها عقدة الخوف من الرجال .. والخوف يولد الفشل فى الحياة الزوجية؛ لأن الفتاة هنا تفقد شخصيتها أمام الخوف من زوجها، وتصبح دائماً فى حالة الدفاع عن النفس .. وتخفى شعورها بالغضب وراء ابتسامة صفراء .. وتشعر أن زوجها «يحركها» كما كانت أمها «تحركها» كأداة ردع للأب ..

وليس هذا كل شىء .. فالأم المولدة للخوف تجعل ابنتها تخاف من والدها، وبالتالى من أى رجل .. وقد تحجم الفتاة نهائياً عن الزواج إذا بقيت أمها تغرس فيها بذور الخوف من الرجال؛ لأن الفتاة تشعر بأنها إذا تزوجت ستفقد شخصيتها ..

وهذا الأمر، يشبه من يرى غريقاً فيخاف من السباحة .. أو حتى من تعلم السباحة..

وضعف الأم ينتقل عادة إلى الابنة، وعبارة من نوع : «**أى زواج أفضل من لا شىء**» تجعل الفتاة تقدم على زواج سريع وسيئ لا يعمر طويلاً ..

*** كيف تعاملين أمك؟ :**

علاقة الأم بالفتاة بعد النضوج هى علاقة المراقبة فقط .. وعلى الفتاة أن تسامح أمها إن شعرت أنها أخطأت .. وتشعرها أن هذه هى مشكلتها أى (مشكلة الأم) وليست مشكلة الفتاة ..

ومن السهل تصور ذلك، لكن من الصعوبة أن يعمد المرء إلى تنفيذ ذلك ..

* * *

# (مهمة الأم)

أول كائن يتصل به الولد هو الأم .. وجملة الأسباب التى تجعل الأم، فى آن واحد، واهبة الحياة وأكثر الناس أهلية لإيقاظ الشخصية الإنسانية والذهاب بها شطر الحب .. ولئلا يطول بنا تعداد تلك الأسباب، حسبنا الآن إيجازها بسرعة ..

الأم وحدها أُعطيتْ تلك الموهبة الخارقة : أن تحس كائناً إنسانياً غير ذاتها وإنما هو لحمها ودمها ..

فهى بطريقة عفوية غريزية، تخلق حول طفلها جواً من الأمان والرفق يعمل على تنمية المشاعر الودية وعلى تفتح الولد فى مناخ من الصداقة والمحبة للأشخاص والأشياء..

وبسبب وجودها بقربه بصورة شبه مستمرة، فهى تحيط به إحاطة تامة .. تعرفه فى جميع انفعالاته، وبإمكانها أن تصفه فى جميع تصرفاته .. إنها تسجل تاريخ ابنها، وبذلك تساعده على تحقيق وحدته ..

وقد ركز الطبيب النفسانى الإنكليزى «بولبى» على ضرورة الاستمرار، لكى تتمكن شخصية الولد من التفتح .. ومع نمو الولد، توفر له أُمه الكثير من طرائق التعبير، وتحثه على استعمالها .. وتستدرجه إلى المكاشفة والنجوى، وتفتح قلبها لما يساوره من هموم وصراعات ومشاغل ..

فليست هى التى تأبى الإصغاء وترد الطلب بحجة انهماكها المستمر، بل هى التى لها متسع من الوقت، فتدرج فى تضاعيف أشغالها ما يصدر عن صغيرها أو صغارها من أحداث وتصرفات وأقوال ..

هى التى تجدها أبداً متأهبة ـ وهى الملاذ ـ دائماً حاضرة، متنبهة لاحتواء شكوى، والإصغاء إلى نجوى .. ولكن النجوى ليست دائماً بالأمر اليسير، ولا تأتى

عن طلب وفى ساعة معينة .. ولا يُعرف متى يكون الولد مستعداً لشرح قلبه وإفاضة مشاعره فى لحظة من لحظات الحب والاستسلام .. لابد إذن من حضور مستمر، وكائن متأهب ..

فالأُم هنا كالمراقب وراء مرصده، ينتظر من غير أن يزعج الحيوان المرقوب فى حركاته وسكناته .. إنها تلتمس، وتتفهم، وتشيع السكينة والطمأنينة .. وبحنانها تعلّم ابنها أن يثق بكائن آخر، وأن يفهم ذاته ويعرفها .. هذا بقدر ما تسعى هى، بجهد واعٍ، إلى معرفته وتفهمه ومساعدته على الاتصال بالآخرين ..

تلك هى الأُم، وتلك هى مهمتها الأساسية .. وهذه المهمة هى ضرب حقيقى من ضروب التدريب على الحب ..

* **ابتعاد الأُم :**

ولكن لأسباب مختلفة جداً، نرى اليوم ضرورة حضور الأم حضوراً مستمراً بقرب ولدها الصغير، موضوع تَنكّر واستخفاف متزايد .. فالأُم تبتعد عن أبنائها للعمل خارج البيت .. وكل مرة تخرج من البيت يحدث ذلك فى نفوس الصغار قليلاً أو كثيراً من الكمد، وصراخاً ودموعاً وشعوراً بالانتباذ ..

ثم بعد فترة من الزمن، «يتكيفون» بيُسر أو بعسر، وفقاً للشخص الذى وُكلوا إليه: ينكمشون على ذواتهم ولا يفضون بطويتهم إلا قليلاً؛ يقلّون من الكلام أو يستسلمون، إذا التقوا بأمهم، إلى ألوان من الحنان المسرف، هى فى الواقع استعاضة ثأرية يسدون بها حاجتهم الملحة إلى تلك المحبة التى حرِموها بعض الوقت ..

ولكن الحوار الطبيعى، بين الأُم وابنها قد تشوش .. فالولد يألف الأشخاص الذين حلوا محل أمهم، فلا يعود يعرف إلى أى قطب يتوجه. فمعرفة المرضع به غير معرفة الأم .. ومعاملة هذه غير معاملة تلك .. والأُم نفسها عندما تعود من عملها، وبمقدار ما تستعيد ابنها لبضع ساعات، ليس بوسعها أن تفرغ له الوقت اللازم، بسبب ما يستدعيها من أشغال المنزل، أو نراها .. وقد حرمت ابنها سحابة النهار ..

تستسلم لدفق مسرف من مظاهر الحنان والتدليل.. وكأنما تروم بذلك أن ترفع عنها عتب غيابها عن البيت ..

العلاقات بين الأُم والولد لا تتطور إذن تطوراً سليماً .. فالأم قد انقطعت عن ابنها، ولم يعد بإمكانها أن تستوعب، فى نظرة شاملة، مختلف تصرفاته : فى المدرسة.. فى الشارع .. فى النادى .. وعند من يقوم على حراسته .. ويُقلع الولد عن الإفضاء بمكنونات قلبه .. ويظل مجهولاً عند ذاته، وعند الآخرين.

وليس هناك من يعاونه على استيضاح أمره وتوحيد موقفه .. ولأن أمره موكول إلى هؤلاء تارة، وإلى أولئك تارة أخرى، فلا أحد يجيد معرفته .. وبسبب انتقاله من يد إلى يد، فهو يسأم تلك الصلات التى تنعقد وتنفك باستمرار ..

ولا تلبث تلك الاتصالات المتعددة أن تخلف فى نفسية الولد نوعاً من اللامبالاة، ومن التعايش السلبى والسطحى مع الآخرين .. فكما أن الآخرين من حوله لا يعرفونه، فهو أيضاً لا يعرفهم ..

هكذا، إذا حُرِمَ الوَلَد ذاك الكائن الأوحد الذى يمكنه أن يحبه حباً مستمراً، ثابتاً، والذى أقيم بقربه فى الفترات الأولى من حياته حارساً مستقراً، فذلك له أثر خطير جداً فى نموه ..

نتائج ذلك الحرمان ـ إلا فى بعض الأحوال الاستثنائية ـ أنه يؤخر، ويشل ما للطفل من إمكانات الإعراب عن ذاته، والاتصال بالغير، والارتباط ارتباطاً دائماً بكائن آخر يبادله المعرفة والمحبة ويعيش وإياه فى جوّ من الألفة والمكاشفة ..

إن معرفة الولد لهى من ألوان التأمل .. والتأمل يقتضى التفرغ .. فلكى تحب وتعلم الآخرين الحب .. عليك أن ترضى «بهدر الوقت» .

* لماذا ابتعاد الأم عن البيت؟ :

فى الأوساط العمالية، نجد له فى الغالب .. أسباباً اقتصادية .. فالمرأة العاملة كثيراً ما تعمل خارج البيت عن كُره .. فما تكسبه ترفد به معاش زوجها الضامر، وتعوض به عما يتعرض له رب البيت من عدم استقرار العمل .. وتتمكن من البلوغ شيئاً ما، إلى ذاك القدر المرموق من الرفاه المادى الذى توفره الحضارة المعاصرة، وتبتعد عن مسكن ضيق تكاد تختنق فيه ..

ولكن من الخطأ الفادح أن نحصر الأسباب التى تفرق بين الأم وولدها، فى نطاق العوامل الاقتصادية .. كثير من النساء العاملات، عندما يحسمن من كسبهن النفقات الإضافية التى يستوجبها ابتعادهن عن البيت (أجر المرضع، نفقات الغسيل والطبخ ...) يتبين لهن أن عملهن خارج البيت لا يعود عليهن بالربح .. هذا مع العلم أن فى الأوساط الميسورة أيضاً كثيراً من الأمهات يعملن من غير اضطرارات اقتصادية ..

لابد من البحث إذن فى غير مظنة عن السبب الجوهرى الذى يصرف الأم عن ابنها لصالح الحياة المهنية .. هناك تيار فلسفى زائف، وحركة أفكار وآراء تدفع المرأة فى هذا السبيل ..

يقال : إن المهام المنزلية تستعبد المرأة وتحد آفاقها ..

لاشك أن العمل البيتىّ قاصر بذاته عن أن يوفر للمرأة انشراحها .. وسواء أقامت به قياماً موفقاً أم رزحت تحت عبئه، فمن الثابت أنها لن تجد فيه غاية حياتها، ومعنى وجودها ..

ولكن .. ما الذى ـ فى أغلب الأحيان ـ يعرض عليها خارج البيت من أشغال أقرب إلى الأهداف الإنسانية؟ غسل زجاجات، لصق عناوين، تعليب منتجات .. مراقبة آلة .. ضرب على آلة كاتبة .. تنضيد بطاقات .. تسجيل جداول .. وكالة

مستحضرات صيدلية .. ارتياد المراكز الكبرى ساعتين كل يوم فى حافلة أو داخل مترو .. أفى مثل هذه الأشغال تصيب المرأة ما يوسع آفاق ذهنها ؟ ..

لماذا الذين ينددون معنا بالأوضاع القاسية التى يتم فيها غالباً العمل الإنسانى، يريدون أن يخضعوا الأم لهذا العمل، ويحاولون إقناعها بأنه يضمن لها الانشراح ؟..

إن فى ذلك ـ لَعَمْرِى ـ تناقضاً غير معقول!. عمل المصانع فى الأحوال الراهنة يزعزع المرأة أكثر مما يعود عليها بالمنفعة .. فهى أكثر من الرجل تضرراً بالضجيج والاضطراب والتسرع فى نظام العمل وعواقب الإنتاج المؤذية والأشغال الرتيبة والاستمرار وقوفاً مدة طويلة ..

فإذا ثبت أن عمل الأم خارج البيت كارثة للولد، فمن البهتان الادعاء بأنه خير للمرأة، لا بل هو زيادة إرهاق، وسبب اختلال وانهداد فى الأعصاب .. ومصدر اصطدامات كثيرة ..

بإزاء النشاط المهنى، يبدو العمل البيتى ـ ضمن شروط سكنية قانونية أو أقل مما يفرضه القانون ـ مشبعاً بالمقومات الإنسانية .. فهو يفرض ابتكاراً وذكاء ..

وقد كتب أندريه موروا فى هذا الشأن :

ـ «المرأة التى تسوس بيتها سياسة حسنة هى ـ فى آن واحد ـ سيدة ومسودة .. فهى صاحبة الفكرة، وهى التى تنفذها غالباً .. فى نظر زوجها وأولادها، هى التى تجعل العمل ممكناً .. تدفع عنهم الهموم، وتوفر لهم الغذاء والعناية .. وزيرة اقتصاد، بفضلها تستقيم ميزانية البيت .. وزيرة فنون، بفضلها يكتسب البيت شيئاً من البهجة.. وزيرة الصناعة العيلية ..

المرأة التى تفلح فى جعل بيتها عالماً صغيراً كاملاً يحق لها من الافتخار ما يحق لأكبر رجل دولة استطاع أن ينظم أمور بلاده .. لقد كان المارشال ليوتيه مصيباً يوم قال :

**ـ إن إعتبار الدرجات ليس له شيء من الأهمية .. ما هو كامل فهو كامل، أياً كانت أبعاده» ..**

عبر الأشياء التى تطيف بها وتستخدمها، وعبر الأعمال التى تقوم بها، ترتبط الأم بكلٍ من الأشخاص الذين يعيشون فى محيطها .. عملها فى البيت يعرب عن مدى حبها ووعيها؛ إنه أسلوب تعبير، ووسيلة تبادل، وشركة مع الآخرين ..

فلماذا نرى الأم المعاصرة تضيق ذرعاً بقطاعها الخاص، وتشعر أنها فيه مأمورة أكثر منها آمرة؟

ربما وجب إلقاء التهمة على الرجل المعاصر، زوجاً وأباً .. سوف نبحث بعد قليل فى تصرفاته .. ولكن فلنلاحظ منذ الآن بأسفٍ أن بعض الرجال ـ لأنهم يحملون وحدهم أعباء البيت المالية ـ يستغلون هذا الوضع لفرض نيرهم على أزواجهم.

هنالك رجال آخرون لم يعد فى وسعهم ـ لأسباب مختلفة ـ تأمين ما يلزم لنفقات البيت .. ويحدث أحياناً أن امرأة تأبى الاستمرار فى عهدة رجلٍ لم تعد تجد معه الضمان المالى، ولا الطمأنينة العاطفية؛ فرغبتها فى الهروب من البيت ناجمة عن أنها أمست لا تعيش فى بيئة حب ..

ولكن هذا السعى إلى الاستقلال، فى العمل المهنى وبواسطته يفرض على المرأة عبوديات جديدة .. فهى لابد خاضعة لأشخاص آخرين .. من مراقبين ومراقبات، ورؤساء صغار وكبار .. وعليها أن ترتبط بمواقف صارمة جداً .. فلكى تنفض عنها نير إنسان واحد تستعبد لأناس كثيرين!!

وهكذا تضيف إلى التزاماتها البيتية ارتباطاً بمهمات أخرى .. والمال الذى تجنيه بعملها لا يكسبها غالباً إلا الشعور الزائف بالحرية ..

هناك اعتراض ..

إن ما قيل فى المرأة العاملة لا يصح فى الممرضة والطبيبة والمعاونة الاجتماعية والمعلمة .. من حسن الحظ ـ ولا شك ـ أن الجهد الذهنى الذى يقتضيه الحصول على مثل هذه الشهادات المهنية، يوسع ثقافة المرأة كما يوسع ثقافة الرجل .. وممارسة هذه المهن تمكن المرأة من اكتساب خبرة فى الحياة راهنة ..

بيد أن لهذه الحرف سيطرة مخيفة على أصحابها .. فالأم إذا استغرقتها معضلاتها المهنية أو الشخصية تعذر عليها تعهد أولادها بما يكفى من العناية والحنان، والأولاد إذا تلفت أعصابهم، وتوعرت طباعهم، وعجزوا عن تحقيق معنى الحب .. فتلك ـ لَعَمْرِى ـ كارثة لا تعوض» ..

«تيـودور بوفيـه» ..

وهذا ما يجرى فى الواقع .. فالمهنة ـ حتى المهنة الحرة ـ فى القرن العشرين .. ترهق رب الأسرة .. وقد بدأت ترهق الأم أيضاً من غير أن توفر لها ـ غالباً ـ الانفتاح الثقافى الذى تسعى إليه .. ولا غرو، فهذه المهن نفسها معطوبة بمرض الفعالية والآلية والمواقف المتحجرة والتهالك على الكسب ..

وقبل أن نذهب إلى أبعد من ذلك، لابد أن نتفق نهائياً ـ وبصرف النظر عن كل عقدة برجوازية أو لا برجوازية ـ على ما نعنيه عندما نتكلم عن انتعاش المرأة .. فهذا الانتعاش لا يمكن إلا أن يكون حصيلة اكتمال شخصيتها الكلية اكتمالاً لا يتحقق تماماً إلا مع نضجها الروحى ..

والنضج الروحى هو المرحلة التى يفضى إليها الكائن البشرى عندما يبلغ درجة ما من معرفة ذاته .. فينسلخ جزئياً عن «أنا» الذى هو سجنه الأغم .. ويشرف على ذاته وذات الآخرين ويتفهمهم، ويضع نفسه محلهم ويشعر أنه متصل بهم ويحبهم .. فالانتقال من الأنانية إلى الغيرية ـ وهو انتقال بطىء لا يبلغ أبداً إلى كمال غايته ـ هو عند الرجل وعند المرأة، علامة نضجهما الروحى، واكتمالهما الإنسانى .. على هذا، جميع علماء النفس مجمعون ..

ويقول أصحاب التحليل النفسى : إن الكائن البالغ هو الذى انتهى إلى طور العطاء، وبذل الذات للآخرين بأسخى ما يمكن، على صعيد الوعى ..

هذا النضج الروحى إنما هو جوهر روح الأبوة والأمومة .. ويتحقق مع ما هنالك من خواص الفارق الجنسى، ببذل الذات والأهمية للخدمة، والتضحية فى سبيل الآخرين .. وتفهمهم .. والتزام السكينة والهدوء، لأن الحب الحقيقى إنما هو ترياق القلق والاضطراب ..

الأمومة ـ إذن ـ هى التحقيق الواعى لما تملكه المرأة من نزعات عميقة : الشعور المرهف، وفهم القريب فهماً بديهياً، والذوق واللطف والوداعة والأهبة العظيمة لوضع الذات موضع الآخرين، وإفساح المجال لأن يعربوا عن ذواتهم فى مناخ من الجمال والرفق والوداعة والفطنة الهادئة والاستسلام والدعة والطمأنينة ..

ويدعم هذا كله ليس فقط شعور المرأة وعقلها بل ثقافتها الإنسانية أيضاً.

روح الأمومة .. هذا يمكن أن يتحقق فى امرأة ليس لها أولاد .. ولكن إذا تحقق من غير أمومة بيولوجية .. فالمرأة كثيراً ما يؤلمها حرمان الولد الحقيقى ..

بإمكان المرأة أن تنجب أولاداً، وتكون ربة بيت حاذقة .. من غير أن تملك ذاك النضج الباطن، وذاك الوعى للقيم الأنثوية، بل الإنسانية التى أوجزتها بكلمة «روح الأمومة» .. فرب إفراط فى عدد الولادات، ورب أوضاع سكنية مزرية .. بإمكانها أن توهى هذا الروح وتتصدى له ..

ولكن إذا اعتبرنا هذا كله وأجّلْنا فيه الفكر، تبين لنا أن المناخ الإنسانى الذى يفتقر إليه الولد لانشراحه هو تقريباً نفس ما تحتاج إليه الأم لكى تحرز وتنمى النضج الروحى الذى تكلمنا عنه ..

أنبل مصالح المرأة والولد تلتقى فى اتجاه واحد .. وليس بالإمكان أن نجعل تناقضاً بين انشراح الأم وانشراح الولد .. فمقتضيات هذا وذاك هى ذاتها تقريباً، إذا استوت

على الصعيد الأعلى (وليس طبعاً على صعيد الأنانية الفردية) ..

إن تحقيق الأنوثة الكاملة إنما هو البلوغ إلى النضج الروحى .. وهو الشرط الأول لكى تتمكن الأم من خلق جو تربوى يلائم انشراح الولد .. وأما ما يتوهمونه من تناقض بين مصالح المرأة الأم ومصالح الولد، فيزول إذا استوينا على الصعيد الأعلى .. صعيد الوعى المفكر ..

والواقع أن الأمومة لا تنحصر فى مجرد إنجاب البنين وترضيعهم وتنظيف ألبستهم وتحضير أطعمتهم وتوزيع ما يلزمهم من ملاطفات تارة، وصفعات تارة أخرى حسب مزاج الساعة ..

الأمومة : هى أن تتخطى المرأة دائرة المهام البيولوجية، والمادية المتصلة بوظيفة الأمومة ...

الأمومة .. هى أن تساعد كائناً آخر على النمو والبلوغ واكتساب إنسانية كاملة؛ ولأن الأم تحب ابنها بجميع نياط كيانها، فهى أكثر أهبة من أى كائن آخر لبذل ما ينبغى من جهد لمعرفته وفهمه ..

الأمومة .. هى الوقوف ـ بدافع الحب ـ على جميع المعضلات الإنسانية التى يطرحها الولد فى البيت وخارجه ..

الأمومة .. هى التنبه والاهتمام لجميع المشكلات التى يثيرها الولد إبان نموه، والتى تشمل من بين جميع المعضلات الإنسانية، أكثرها واقعية، وأكثرها تنوعاً وسمواً فى آن واحد ..

والولد يعمل على تربية أمه بجميع المعضلات التى يطرحها .. أولادنا قيمون على تربيتنا : يطرحون علينا أسئلة تتعقد يوماً أكثر من يوم، فيلجئوننا بذلك إلى أن نعيد النظر فى ذواتنا إعادة متواصلة .. ومن ثَـمَّ فتربية الولد هى للمربى ولادة جديدة، فالولد يوسع آفاقنا الإنسانية إلى ما لا حد له، ويفرض علينا استقامة متواصلة فى

التصرف .. واستقصاء لمعنى الحياة والأوضاع الحياتية والتسامى بلا انقطاع فى مراقى الوعى ..

ما أروعه وأعمقه نص «مونترلان» هذا :

**ـ «أنا من تحب إلى هذا الحد أن تكون محبوبة، كان بإمكانى أن أكون مخلوقاً يعود لى كلياً، أن أصبح موضع حبه» ..**

**ـ «لكم أود أن أعطيه عن أمه فكرة تحصنه من كل شىء مدى الحياة» ..**

ـ «وينبغى أن نكون أكثر تشدداً على ذواتنا، وأن نجانب كل خساسة، وأن نحيا فى الاستقامة واليقين والصفاء والنقاوة، لكى يستطيع كائن أن يحفظ منا، فى المستقبل، أجمل صورة ممكنة فى الحنان وبغير لوم ..

«إنه استعادة ذاتى .. أو بالأحرى .. ولادة ثانية لذاتى أكوّنه وأكوّن معه ذاتى فى آن واحد .. أحمله ويحملنى .. أمتزج وإياه، وأفرغ فيه خيرى .. وأود بشغف كثير لو يشبهنى فى خير ما لدى» ..

أى عمل مهنى بإمكانه أن يقوم مقام هذه المغامرة، مغامرة الأمومة الروحية ؟

المرأة التى تسعى إلى فهم أولادها ومعاونتهم وتنشئتهم وتهذيبهم، إنما تعمل على تنشئة ذاتها وتهذيبها .. إنها تسمو بذاتها إلى مستوى إنسانى رفيع، وليس هناك مهمة من المهام الاقتصادية أو المهنية تملك مثل هذه الصفة وهذه الطاقة وهذه القدرة على الارتقاء ..

كثيرون يحاولون تنحية المرأة عن هذا الطريق الأساسى؛ لأنهم يجهلون الثروات التى لابد منها للأم الحقيقية والتى يمكنها الحصول عليها إذا حققت دعوتها الأمومية ..

المرأة العاجزة عن أن تقدر بل أن توجس، بداهة، ما يقتضيه الأبناء الموكولون إليها من انشراح نفسيتها وتأصل شخصيتها لن تجنى من الاتصالات البشرية فى بيئة العمل فائدة أعظم ..

ما هى إذن الأوضاع البيئية التى لابد للأم من معرفتها لكى تنشرح على الصعيد الأمومى والأنثوى ؟..

حسن ـ ولاشك ـ أن تزود الفتاة بتنشئة مهنية تؤهلها لأن تعيش غداً مستقلة ومن غير أن تضطر ـ بصورة لازبة ـ إلى انتظار «أميرها الفتان» .. ومن اللازم أيضاً أن تعمل على تنمية مواهبها المنزلية .. فذلك مفيد إذا بقيت وحدها فى الحياة .. وضرورى إذا دعيت لبناء بيت ..

بيد أنه أشد لزوماً أن يوفر لها من أسس المعارف الإنسانية أكمل قدر ممكن، وأن يُفتح عقلها على الثقافة فتحاً واسعـًا وأن تدرب على التفكير .. وتؤهل لتذوق حياة باطنة عميقة .. هذا أيّـا كان وسطها الاجتماعى ..

وعليها ـ قبل الزواج بكثير ـ أن تتدبر مستقبلها ـ كزوجة وأم ـ فى خطوطه الجوهرية .. فلربما تجنبت بذلك الوقوع فى ارتباط أعمى وصراعات أليمة لا سبيل إلى حلها ..

فاذا رُزقت أولاداً ـ أيّـا كان العمل المتوجب عليها ـ وكانت على بينة من مهمتها الأمومية، فواجبها السعى إلى الاحتفاظ بوقتها والتفرغ لمهمتها والإخلاد إلى فترات هدوء، وعزلة وصمت، وصيانة حياتها الباطنة .. وعلى المجتمعات الإنسانية أن تعاونها فى ذلك ولا تتصدى له ..

اليوم وقد أخذت الآلة تحسّن وضع الإنسان .. أصبح ضرورياً أكثر من أى يوم آخر، أن تستفيد الأم أولاً من أوقات الفراغ، لا لكى تبذرها فى ممارسة الأعمال المهنية .. ولا لكى تهدرها فى ثرثرات لا طائل تحتها .. بل لكى تشترك فى ثقافة إنسانية أوسع وأعمق .. تهيئ لها البلوغ إلى درجة من الوعى أسمى .. وفهم قضايا الإنسان فهمـًا أحكم، والعمل بوجه أفضل .. على إنعاش الآخرين بانتعاشها الشخصى .. وكلاهما واحد ..

المرأة الأم تحقق كونها امرأة وأُمّـا بمقدار ما تسعى إلى :

**ـ مواصلة التضلع من معارفها الإنسانية ..**

**ـ اكتساب معلومات تربوية عملية ..**

**ـ الاشتراك فى عالم القيم (الفنية والخلقية والروحية)**

**ـ الاشتراك فى نشاط المربين الآخرين ..**

**ـ الانضمام ليس بوجه مجرد ايديولوجى، بل فى واقع الجماعات الحقيقية إلى حياة الناس والمعضلات التى تنشأ عنها ..**

* * *

كتب ثيودور بوريه :

*** «مهمة ربة البيت أهم للمجتمع من أى مهنة أخرى» ..**

فإذا شاءت حضارتنا أن تنمو، فعليها أن تمكن المرأة من اكتساب علم الأمومة ووعيها .. فبمقدار ما تكون الأم واعية ومحبة .. تكون هى العنصر الأساسى فى تهيئة الأجيال للحب الإنسانى .. فهى ـ التى فى الواقع ـ تعلم الحب بجميع تصرفاتها ..

وكل ما يمنعها سواء على صعيد الأخلاق أم على صعيد الاقتصاد، من تحقيق هدفها الأمومى، يصيب الولد فيما لديه من إمكانات الحب ..

* * *

# (يا أمــى(*))

يا علة كيانى، ورفيقة أحزانى .. يا رجائى فى شدتى، وعزائى فى شقوتى، يا لذتى فى حياتى، وراحتى فى مماتى، يا حافظة عهدى، ومطيبة سهدى، وهادية رشدى، يا ضاحكة فوق مهدى، وباكية فوق لحدى ـ أمى وما أحلاك يا أُمى ..

إذا تركنى أهلى فأنت لا تتركين، وإن ابتعد عنى أحبابى فأنت لا تبتعدين، وإن نقمت علىّ جميع الحياة فأنت تصفحين وترحمين ..

أنت يا مسكنة وجعى وألمى، ومبيدة بؤسى وهمى، أنت وما أصفاك يا أمى ..

على بساط الأوجاع ولدتنى، وبأيادى الآلام ربيتنى، وبعيون الأتعاب رعيتنى، وبصدر المشقات حميتنى .. ثم كبرت فقلوت آلامك، وهجرت وسلوت أيامك .. هكذا نسيت رحمى، واحتقرت دمى .. فما أعقنى، وما أوفاك يا أُمى!!

قد غبت عنك يا أمى، فغاب عن عينى وجهك الباسم بملامحه الرقيقة الرزينة، ومعانيه الدقيقة الحنونة .. وتراكمت على رأسى هموم الحياة بضجيجها الهائل فضعضعت فكرى، وزلزلت قلبى .. وتقاذفتنى أمواج المتاعب والشقاء فغرت فى لجج طامية، وظلمات داجية، وبعينين غشى عليهما الرعب نظرت من أعماق قنوطى فرأيت وجهك اللطيف الثابت يبتسم إلىّ من الأقاصى البعيدة، فبكيت وبكيت وصرخت «يا أُمى» ..

آه ما أقسى الغربة! وما أمر الوحشة !!

قد كرهت البعاد يا أمى، واشتاقت نفسى ماضيها الأمين!!

قد كرهت التمشى بين القصور الفخمة والمبانى الشاهقة واشتاق قلبى إلى بيتنا الصغير المنفرد!!

---

(*) إلياس فرحات ..

قد كرهت روائح العطور الفائحة من التماثيل المتخطرة فى «برودواى» واشتاقت حواسى إلى الأمومة المنتشرة من فستانك العتيق!!

قد كرهت نيويورك وكرهت أميركـا، وكرهت العالم، ولم يبق لى فى الحياة إلاكِ ـ إلاكِ يا أُمى!!

فى المساء عندما أنطرح على فراشى الخشن القاسى، أذكر يديك اللطيفتين الناعمتين !!

وفى الليل لما تمتزج أفكارى بأبخرة الأحلام أشعر بقدميك الصغيرتين ينقران الأرض حول سريرى!!

وفى الصباح أفتح عينى لأراكِ فلا أرى غير جدران غرفتى السوداء، ولأسمعك، فلا أسمع غير أصوات الغرباء!!

وفى النهار أمشى متلفتاً بين النساء مفتشاً مسائـلاً .. أيتها النساء هل رأيتن أمى ؟..

جراء الكلاب تجلس فى أحضان أمهاتها، وفراخ الدجاج تحتمى تحت أجنحة أمهاتها، وغصون الأشجار تبقى معانقة أمهاتها .. وأنا وحدى ـ بعيد عنك مشوق إليك يا أمى!!

إذا مت يا أمى، إذا قتلنى وجدى، ودفنت آمالى فى هذه الأرض القاسية الغريبة، فاجلسى عند الغروب قرب غابة السنديان، وأصغى .. هناك روحى امتزجت بنسيمات الغابة وأشجارها يرتلن متمايلات مرددات : «يا أُمى يا أُمى!!»(*)..

* * *

(*) بلاغة العرب ..

# (الأُم)

أعطتها الحياة كل ما تريد .. زوجاً محباً وفياً .. وطفلاً جميلاً ملأ دنياها بالسعادة والأمل ..

ولكن سماء هناءتها لم تلبث أن اكفهرت فجأة .. فاختطف الموت زوجها الشاب بعد مرض قصير!!

وارتدت الزوجة الصغيرة ثياب الحداد .. وعاشت بين دموعها ووحدتها أياماً طويلة مريرة .. حتى أدركت أن لا جدوى للبكاء .. وأن من ذهب لن يعود ولو أغرقت الأرض بدموعها!!

وبدأت تحصر تركة زوجها الراحل .. لترسم طريق حياتها الجديدة .. امرأة بلا زوج وطفل بلا أب!!

كان كل ما تركه لها .. بضعة عشر جنيهاً، هى مكافأته عن سبعة أعوام قضاها فى خدمة إحدى المؤسسات الصناعية!!

بضعة عشر جنيهاً .. إنها لا تكفى للحياة بضعة عشر يوماً .. ثم تصبح من الذكريات!!

وبدا لها المستقبل مظلماً .. كهوة عميقة فاغرة فاها تتشوق إلى ابتلاعها .. ما أقسى وحدتها الآن بلا زوج ولا أهل!! فقد كانت يتيمة الأبوين .. عاشت فى كنف خالتها التى توفيت بعد زواجها بأيام ..

وكادت تيأس وتستسلم لمصيرها المجهول، عندما وقعت نظراتها على وجه طفلها وهو نائم .. وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة هانئة مطمئنة ..

لقد أدركت فى تلك اللحظة أنها صارت ربان السفينة الصغيرة .. بعد أن مات

ربانها .. وأن عليها أن تقود السفينة وتشق بها الأمواج وتتحدى الأنواء والعواصف حتى تصل بالطفل الصغير إلى شاطئ الأمان ..

وقررت أن تعمل لتوفر لصغيرها مطالب الحياة ..

وبدأت تطرق الأبواب .. تبحث عن عمل .. أى عمل ..

وبدأت الجنيهات القليلة تتضاءل وتتضاءل، حتى أوشكت على النفاد!!

وأخيراً .. وبعد أن هدها البحث والتجوال .. وجدت عملاً فى متجر صغير .. من الصباح إلى المساء .. لقاء جنيهات قليلة .. ولكنها كفتها مرارة الحاجة وذل السؤال ..

وظنت أن الحياة قد هادنتها .. وأنه لم يبق أمامها إلا أن تعكف على تربية طفلها حتى يصير رجلاً قادراً على الكسب .. ولكن أحلامها كانت سراباً .. إذ بدأ صاحب المتجر الكهل يطمع فى جمالها بعد أن هام بها غراماً .. وظن أن الفريسة سهلة مادام يملك الثمن ..

وجاهدت الأم الصغيرة بكل قواها لتحتفظ بعملها ومعه شرفها .. ولكنها وجدت نفسها أخيراً بين أمرين لا ثالث لهما .. إما الشرف .. وإما العمل ..

وخرجت .. ومعها شرفها ..

وعادت تطرق الأبواب من جديد .. والعيون كلها عيون ذئاب .. والنظرات الشرهة كلها تساومها .. أن تدفع لتأخذ ..

ولكن رصيد شبابها وأنوثتها الذى كان ملكاً لرجلها .. صار من بعده ملكاً لطفلها .. فليس من حقها أن تنفق منه ..

وتقدم إليها كثيرون يطلبون يدها، ولكنها ردّتهم عن بابها يائسين .. فقد قررت أن تعيش لطفلها لا يشاركه أحد فى حبها وحنانها ..

وامتهنت أشق الأعمال وأدناها .. كانت تغسل ثياب الناس وتنظف بيوتهم لقاء قروش قليلة .. ثم تعود آخر النهار مرهقة مكدودة، لا تكاد ساقاها تقويان على حملها!!

ويتلقاها طفلها الصغير بالعناق .. فتأخذه فى صدرها وسرعان ما تنسى بين أحضانه همومها وشقاءها!!

ومضت الأيام ..

وكبر الطفل .. وعرف الطريق إلى المدرسة ..

وبدأت الأم تجاهد فى صلابة؛ لتوفر له نفقات الدراسة، فحرمت نفسها من الطعام إلا ما يقيم أودها لتشبعه .. وحرمت نفسها من ثوب بديل عن ثوبها القديم المهلهل .. لتكسوه!!

ومضت الأعوام ..

والأم تجاهد .. سعيدة بجهادها .. سعيدة بتضحياتها من أجل ولدها .. حتى أثقل الشقاء كاهلها، وأحنت الهموم ظهرها، فبدت فى خريف العمر وهى دون الأربعين ..

وصار الطفل .. شاباً يحمل فى يمينه شهادة دراسية متوسطة تفتح أمامه الطريق إلى إحدى الوظائف ..

وذات يوم زف إليها البشرى التى عاشت عمرها تحلم بها .. لقد وجد عملاً!!

وأخذته فى صدرها وقد غسلت دموع الفرحة وجهها .. وقال لها فى سعادة دافقة :

**ـ الآن يا أمى .. آن لك أن تستريحى .. فقد جاء دورى لأرد لك بعض صنيعك.. ولو أننى مهما فعلت فلن أستطيع أن أعوضك عشر معشار ما ضحيته من أجلى ..**

وهمست الأم وهى تمسح بيدها على شعره فى حنان :

**ـ لا تقل هذا يا ولدى .. فما فعلت من أجلك أكثر مما تفعله أى أم من أجل أولادها ..**

وظنت الأم البائسة أنه قد آن لها حقاً أن تستريح .. فى كنف ابنها البار الحنون .. وأن القدر الذى طالما عاداها وأذاقها المر والشقاء .. سيعطيها نصيبها من السعادة .. ولكنه كان مايزال يتربص بها ..

فبينما كان وحيدها فى طريقه إلى عمله ذات صباح، صدمته سيارة مسرعة .. ونقل إلى مستشفى البلدة بين الحياة والموت!!

وبعد لحظات .. كانت الأم تجثو أمام الطبيب، وتغسل قدميه بدموعها، وتتوسل إليه أن ينقذ وحيدها ..

وقال لها الطبيب : إن ولدها فى حاجة عاجلة إلى نقل دم .. فقد نزف كثيراً .. وليس بالمستشفى دم من فصيلته ..

وصرخت الأم فى صوت ملهوف وهى تمد إليه ذراعها :

**ـ أنا أمه .. ودمى دمه .. خذ منه ما تشاء ..**

ونظر إليها الطبيب مشفقاً .. فرأى فى عينيها الدامعتين نظرة ضارعة .. ولم يكن أمامه خيار .. فتناول ذراعها .. وبدأ عمله ..

ومضت لحظات .. والدم يتدفق من قلب الأم إلى قلب الابن .. فيما تعلقت نظراتها القلقة بوجهه الشاحب المسجى أمامها على المنضدة البيضاء ..

وبدأ لون الدم يترقرق فى وجه الابن .. فيما أخذ وجه الأم يشحب ويشحب .. ونظر إليها الطبيب فى قلق .. فهمست إليه فى صوت واهن .. ولكنه قاطع :

**ـ لا تتوقف يا سيدى .. فمازلت أملك الكثير من أجله ..**

وتنفس الطبيب فى ارتياح .. والتفت إلى الأم الطيبة يهنئها بنجاة ولدها .. ولكن نظراته تسمرت على وجهها فى ذهول!!

كان رأسها قد تدلى على صدرها وقد أضاءت وجهها ابتسامة سعيدة راضية .. فيما كف قلبها عن الخفقان(*) ..

* * *

(*) قلب الأم ـ فؤاد القصاص ..

# (قُـبْـلَة على جَبِين الأُم(*))

* أمى الحبيبة ..

أتلفت من حولى يميناً وشمالاً لأرى أبناءك وإخوتى أصبحوا عاقين لك .. لايحسون بحجم التضحيات العظيمة التى بذلتها من دمك وخلاياك حتى النخاع ..

* أمـــى

إننى أحاول جاهدة لأصبح من أبنائك الأوفياء البررة .. لكن أوراقى تتمزق أمامى .. وأقلامى تتكسر بين أصابعى .. ولسانى يقف مشلولاً عاجزاً من الخجل والتردد .. فأنا لا أستطيع أن أعبر عن خلجة واحدة تدور بين ثنايا نفسى .. تمنيت ـ يا أماه ـ لو أصبحت صفحة السماء التى تظلل العالم كله ورقة صافية أنقش لك فوقها بدمى وأعصابى كلمة تموج داخلى حباً وحناناً عليك ..

تمنيت لو أستطيع أن أقطف أزهار الدنيا كلها لأهديها إليك، وأضمد بها جراحك وآلامك الكبيرة .. تمنيت لو أصبح قطرة من ماء نهرك الخالد تروى العطاشى .. أو حبة فى سنبلة حصاد تذهب للجياع .. أو بذرة عطاء تنغرس فى أرضك الطيبة لتثمر حبّـا ووفاءً وإشراقاً ..

تمنيت دوماً يا أماه .. لو أستطيع أن أطبع على جبينك الوضاء قبلة أضمنها كل أحاسيسى وكل حبى لك يا مصر .. يا أم الأبناء جميعاً ..

(*) زهرة المالكى ـ كلمات للزمن المقبل ..